الإلحاد مشكلة نفسية

الإلحاد ليس حلًّا بل هو اعتراف بالفشل في إيجاد حل

نعم الإلحاد مشكلة نفسية وإن كان سببها عوامل مختلفة أدت إلى حدوث تلك المشكلة في النهاية، وعندما أصدر «بول فيتز» أستاذ علم النفس الأمريكي الشهير كتابه «علم نفس الإلحاد» أثار ذلك عددًا كبيرًا من علماء النفس، واعتبروا الكتاب غير مقبول بل ومزعج! فمنذ تأسس علم النفس منذ حوالي قرن من الزمان وهو يركز على الاتجاه المعاكس، وهو «علم النفس الإيماني «فآباء هذا العلم كانوا يعتبرون أن الإيمان بالإله هو الذي يحتاج إلى تفسير.

فعلى سبيل المثال كان الفيلسوف الأمريكي «ويليام جيمس» شكاكًا وإن كان متعاطفًا مع الديانات، وكانت كتاباته تحاول إرجاع الإيمان لعوامل نفسية.

أما «فرويدFreud » فقد كان معاديًا للديانات خاصة المسيحية، وكان دائمًا يبحث عن تفسيرات نفسية تبرر الإيمان بها.

نتيجة لهذه النشأة لعلم النفس ونظرة مؤسسيه للدين، كان طبيعيًّا أن يدق رجال علم النفس المعاصرة جرس الإنذار في مواجهة أي دراسة حول علم نفس الإلحاد.

وفي مواجهة ذلك دعا عالم النفس الكبير «بول فيتز» علماء النفس ليبدأوا في تأمل خبراتهم الشخصية وأن يضعوها تحت ميكروسكوب البحث ليراجعوا أنفسهم ويخرجوا من دراساتهم بنظريات علمية جديدة.

ولا شك أن المفاهيم النفسية التي استخدمت في النظر إلى الديانات سلاح ذو حدين، إذ يمكن استخدامها كذلك في النظر إلى الإلحاد وما

أشبهها بالكهرباء! التي تستخدم لتشغيل أجهزة التدفئة وأجهزة التبريد في نفس الوقت.

والحقيقة التي لا ريب فيها قبل الخوض في مناقشة الخطوط العريضة لعلم نفس الإلحاد، أن أطرح القناعة النهائية لتلك القضية (قضية الإلحاد)، وتتركز هذه القناعة في مفهومين أساسيين:

أولًا: أن العوائق الرئيسية أمام الإيمان بالإله ليست موضوعية (علمية أو منطقية) في معظم الأحيان لكنها ذاتية (نفسية - شخصية - اجتماعية) في المقام الأول ومهما قدم المعارضون للإيمان من أسباب علمية ومنطقية لإلحادهم، فهي ليست إلا قناعًا تختفي وراءه دوافعهم الذاتية الواعية وغير الواعية.

ويؤكد «بول فيتز» هذا المعنى بقوله: (يقيني العلمي أن وراء كل ملحد وما يقدمه من أسباب علمية أو منطقية لإلحاده العديد من العوامل النفسية والشخصية والاجتماعية).

ولا شك أن الناس يتباينون في مدى فاعلية هذه العوامل الذاتية، فقد يكون بعضنا محظوظين إذ نشأوا في أسرة ومجتمع جعلا إيمانهم بالإله أمرًا يسيرًا وفي المقابل هناك آخرون عانوا ظروفًا فقيرة روحيًّا ونفسيًّا صعبت عليهم طريق الإيمان وهذه الملاحظة تظهر أهمية المفهوم الثاني.

ثانيًا: بالرغم من العوامل الذاتية (النفسية - الشخصية - الاجتماعية) لقبول أو رفض الإيمان فإن الإنسان يتمتع «بالإرادة الحرة» و «القدرة على الاختيار» في أن يصير مؤمنًا أو ملحدًا، لذلك نجد أن بعض الأشخاص تبنوا توجهًا دينيًّا يخالف ظروف نشأتهم وبالتالي فإن الإنسان يملك القدرة على أن يخطو خطوته نحو الإله في أي وقت.

وإذا كنا نقرأ كثيرًا في المراجع المتخصصة مصطلح «الدوافع النفسية

والشخصية والاجتماعية» لتبني الإلحاد، فإن من الأمور الشائكة على المستويين العقلي والعلمي التفرقة بدقة بين هذه الدوافع الثلاثة عند دراسة أية ظاهرة.

فالمتخصصون يحدثوننا عن ظروف النشأة المبكرة للطفل كأهم العوامل النفسية لتبني الإلحاد، ثم يحدثوننا عن الشبق الجنسي - مثلًا- كعامل شخصي وقد تأتي بعده طبيعة المفاهيم السائدة في المجتمع كأحد العوامل الاجتماعية (المجتمعية) لهذه الظاهرة، وفي الحقيقة فإن ظروف النشأة المبكرة كعامل نفسي تؤثر في العوامل الشخصية وتحكمها العوامل الاجتماعية، وبالمثل تتأثر العوامل الاجتماعية بالعوامل النفسية والشخصية، إذن فالعوامل النفسية والعوامل الشخصية للإلحاد وجدنا أن بينهما خطًّا مزدوجًا يجمع بين السن والوعي.

فما يؤثر في توجهاتنا في السنوات الأولى من التنشئة يقع في إطار العوامل النفسية، وما يؤثر بعد ذلك يمكن ضمه إلى العوامل الشخصية. ويترتب على هذا الخط السني مدى وعينا بالعامل المؤثر إنما يقع في السنوات الأولى من أعمارنا يختفي عادة من الوعي ويسقط في هوة اللاوعي، بعد أن يترك أثره الذي لا ينمحي في بنيتنا النفسية وما يؤثر فينا بعد ذلك يمكن طرحه مع الشخص للتحليل والمناقشة حيث يكون موجودًا في دائرة وعيه، ومن ثم يعتبر من العوامل الشخصية.

ما أشبه العلاقة بين العوامل النفسية والشخصية بدراستنا للغة العربية فقد تعلمنا حروف الهجاء والكلمات في فصول الحضانة والمرحلة الابتدائية وبالرغم من أننا أصبحنا قادرين على القراءة والكتابة فإننا قد نسينا المواقف التي كانت مدرستنا تعلمنا فيها، أي أننا قد نسينا الحصة واستوعبنا الدرس. ثم تتابع بعد ذلك دروس علوم اللغة العربية المختلفة في مراحل وحصص

ما زلنا نتذكرها ولا شك أن هذه الدروس تعتمد تمامًا على ما استوعبناه في المراحل المبكرة من حياتنا من حروف الهجاء والكلمات.